7. الأعمال المعمارية لبعض سلاطين وأمراء المماليك

منشآت السلطان الناصر محمد بن قلاوون :

(تولي السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون حكم مصر ثلاث مرات متباعدة ، كانت الأولي سنة 1293 م ، والثانية سنة 1298م ، والثالثة سنة 1309م ، وقد شيد الناصر محمد مسجداً مازال موجود حتي الآن بالقلعة بجوار مسجد محمد علي ، وإن كانت ضخامة مسجد محمد علي وارتفاعه تجذب الانتباه عن جامع الناصر محمد ، وتعتبر مئذنة جامع الناصر وقبته وكذلك جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القيشاني الأخضر اللون ، ولقد اهتم السلطان الناصر بتعمير منطقة بولاق فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، ولم يقتصر الناصر علي تشييد العمائر الدينية والمباني السكنية فحسب ، بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجاري المياه والقناطر والعيون ، ومن أهم هذه المباني مجري عيون فم الخليج لتوصيل مياه النيل إلي قلعة الجبل ، وتعد هذه المجري من الآثار العمرانية التي تفخر بها القاهرة في العصور الوسطي ، والتي لا تزال باقية حتي الآن ، كما شيد الناصر المدرسة الناصرية التي تقع بشارع المعز لدين الله الكائن بحي النحاسين ، كذلك شرع الناصر في تجديد المارستان الكبير المنصوري الذي أسسه السلطان قلاوون ، وبني الناصر سبيلاً ألحقه بمدرسته وقبة ألحق بها مكتبة عظيمة وشيد القصر الأبلق في قلعة الجبل ، وقد ازداد تعلق شعب مصر بالناصر محمد لما أتاه من جليل الأعمال وما تكشف لشعبه فيه منه جميل الخصال ، ويعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهي عصور دولة المماليك البحرية ، إذ فيه توطدت دعائم هذه الدولة وبدأت أساليب الحكم والإدارة في الاستقرار ، وكانت القاهرة في عصر الناصر حاضرة لإمبراطورية شاسعة بسطت نفوذها علي مصر والشام وأعلي الفرات والحجاز واليمن والنوبة وبرقة وتونس وبعض الجزر بالبحر المتوسط ،

ويعد الناصر محمد من السلاطين الأبطال الذين خاضوا غمار الحروب وأحرزوا النصر تلو النصر ، وفي سنة 1303 تقابل المغول بقيادة زعيمهم غازان عند مرج الصفر علي مقربة من حمص مع المماليك بقيادة السلطان الناصر محمد فهلك معظم جيش المغول وهزموا ومات كثير منهم وتعتبر هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في التاريخ وعلي إثرها مات غازان كمداً وقوبل الناصر حين عودته من الشام إلي مصر بأعظم الترحيب ، وأقيمت له أقواس النصر في القاهرة وخرج الشعب المصري يحيي قاهر المغول ، وعني الناصر محمد بموارد الدولة المالية فوسع نطاقها حتي يستطيع تنفيذ المشروعات النافعة لجميع مرافق البلاد والقيام بما تتطلبه الدولة من ضروب الإصلاح مع إبطال العديد من الضرائب ، كل ذلك أدي إلي توافر الأقوات ورخص أسعارها وسهولة الحصول عليها)[49]

جامع السلطان حسن :

وإذا كان الحديث يتناول العمارة في عصر المماليك فلابد من الإشارة لمعجزة العمارة الإسلامية في العصر المملوكي ألا وهو جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون الذي يصفه البعض علي أنه جامع والبعض الآخر يعتبره مدرسة ، فهل هو جامع أم مدرسة ؟ وعن هذا الموضوع وتحت عنوان العلم بين المسجد والمدرسة كتب الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطي ما ملخصه : يقول المقريزي ما نصه : (وفي هذا الجامع عجائب من البنيان منها المدارس الأربع التي بدور قاعة الجامع) إذاً فقد أقيمت في دور قاعة الجامع أربعة مدارس لها أربعة أواوين متقابلة بحيث تختص كل مدرسة منها بمذهب من مذاهب أهل السنة الأربعة ، ومعني هذه العبارة أن المدارس أنشئت في

---

[49] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – الهيئة المصرية العامة للكتاب

قاعة الجامع وليس الجامع هو الذي أقيم في ساحة المدرسة حتي غدت هذه المدارس من عجائب فن البنيان في هذا الجامع ، فالجامع هو الأصل وهو الهدف وهو الأساس ولكي تعم الفائدة ويعظم الأجر والثواب أقيمت به مدارس لتعليم علوم الدين وأحكامه وشرائعه ، علي أنه ثمة مرة واحدة في كتابه المواعظ استخدم المقريزي فيها عبارة (مدرسة الناصر حسن بسوق الخيل) ولكن هذه العبارة وردت في تعداده لأسماء المساجد التي تقام فيها الجمعة ، ونص العبارة :

(وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجداً منها جامع شيخو – جامع قانباي – جامع ألماس – جامع قوصون – جامع الصالح – مدرسة السلطان حسن بسوق الخيل) ، والمقريزي هنا يضع مؤسسة السلطان حسن في قائمة المساجد الجامعة وليس في قائمة المدارس وربما نعت هذه المؤسسة باسم الشهرة الذي عرفت به ولم يكن المقريزي هو المؤرخ المعاصر الوحيد الذي أطلق علي مؤسسة السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون اسم جامع وإنما هناك مؤرخ آخر عاصر الناصر حسن وعاش أيامه هو الحسن بن عمر المعروف بابن حبيب المتوفي سنة 779هـ – 1377م صاحب كتاب (تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه) ومن الواضح أن ابن حبيب ألف كتابه الضخم هذا الذي يقع في ثلاثة مجلدات مخصصاً إياه للتأريخ لأسرة قلاوون ، أعني السلطان المنصور قلاوون وسلالته من الحكام حتي أيام ابن حبيب نفسه ولذا يعتبر هذا الكتاب مصدراً أساسياً للوقوف علي أخبار تلك الحقبة

يقول ابن حبيب ما نصه : وفيها شرع السلطان الملك الناصر حسن أيده الله في عمارة المكان الذي أنشأه بالرميلة تحت قلعة الجبل ظاهر القاهرة المحروسة ، وهو بناء مشيد محكم عظيم الشأن مرفوع القواعد ، عالي الأركان ، متسع الفناء يشتمل علي جامع فسيح له صحن كبير فيه أربعة أواوين متقابلة ، وفيه المنبر ، وبه تقام الجمعة ، وعلي كتفي الأيوان الشرقي بابان عظيمان يدخل منهما إلي مدرستين وعلي كتفي الأيوان الغربي مثل ذلك ، وعلي كتفي الأيوان الشمالي بابان أعظم من الأربعة المشار إليهن ، الأيمن منهما مجاز إلي الجامع المذكور ، وبوسط هذا الجامع بركة ماء عليها قبة عظيمة ، وعلي بابه سبيل

في جامع السلطان قم يا من أتي مصرا وطف سعياً بذياك الحرم
وانظر بناء ينجلي للناس في ثوب الشباب واطرح ذكر الهرم[50]

منشآت السلطان الظاهر سيف الدين برقوق :

(تولي السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق حكم مصر سنة 1382م ، وكان محباً للفروسية ميالاً للعب بالرمح ، ولقد ألغي السلطان برقوق الكثير من الضرائب فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار السلع المستوردة ، الأمر الذي شجع الكثير من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم علي الإتجار مع مصر ، وقد اتسع ملك مصر في عهده ، فقد خطب باسمه في أماكن لم يخطب لأحد قبله فيها من سلاطين المماليك ، فخطب باسمه في مدينة تبريز وفي الموصل وفي ماردين وسنجار بجانب مصر وبرقة والشام والحجاز واليمن وضربت السكة باسمه في هذه الأماكن، وعندما توفي الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين ، وكان قد أوصي أن يبني لهم مدفن وأن يلحق به مسجد وخانقاه ، ولقد نفذ ابنه الناصر فرج الوصية ، وتعتبر مدرسة "مسجد" وخانقاه السلطان برقوق

[50] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية–إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة 2000

أولي المنشآت المعمارية في دولة المماليك الجراكسة بمصر وهي ملاصقة لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون وتطل علي شارع المعز لدين الله في "بين القصرين" أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس المملوكية ، فهي تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة علي ثمانية أعمدة وتحيط بها أربعة إيوانات ، ولقد استخدم الرخام لأول مرة في زخرفة الواجهة الرئيسية وزخرفة المئذنة أما مدفن السلطان برقوق فيكفي هذا الأثر فخراً أن صورته استعملت رمزاً لأحد العملات الورقية في مصر ولقد شيد ذلك المدفن السلطان الناصر فرج بن برقوق لأبيه ، واستغرق بناؤه اثنتي عشرة سنة ، واستغل هذا المكان كمدفن وخانقاه للتعبد ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة ومسجداً جامعاً وعلي عهد الظاهر برقوق ارتفع نجم القائد تيمورلنك ملك التتار ودارت عدة صراعات بسبب ذلك في المنطقة ولقد عاصر أيضاً جلوس السلطان الظاهر برقوق علي عرش مصر مقدم الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون إلي مصر حيث وصل إلي الإسكندرية من البلاد المغربية واندمج منذ وصوله إلي مصر في نسيج حياتها يدرس في الجامع الأزهر ويتولي رئاسة القضاء الحنفي)[51]

قلعة قايتباي بالإسكندرية :

تم بناء هذه القلعة علي أساس منارة الإسكندرية القديمة ، وقد أنشأها الملك الأشرف قايتباي سنة 1479 م واشتملت علي مسجد بقيت منارته إلي ما بعد الاحتلال الفرنسي لمصر وتأثر بضرب الإسكندرية سنة 1882 أسوأ الأثر ، وكانت أحداث ضرب الإسكندرية قد تسببت في تخريب هذه القلعة وهدم أبراجها وقسم كبير من واجهاتها وبقيت متخربة إلي أن عنيت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاحها ، وقد أصلحت أبراجها وما يعلوها من أبنية بعد إعادتها لحالتها الأصلية وهي تبدو لزائر الإسكندرية من كل جهة والسلطان قايتباي هو السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي الجركسي وهو من عصر دولة المماليك البرجية ، ولد في سنة 1423 م ، وبويع بالسلطنة سنة 1468 م ، وقد ظل ملكاً لمصر نحو 29 سنة ، وأقام كثيراً من المنشآت المعمارية من مساجد ومدارس ووكالات ومنازل وأسبلة وقناطر للمياه ، كما عني بالعمارة الحربية وبالحصون فأنشأ قلعة الإسكندرية وأخري برشيد ، وقد توفي في سنة 1496 م وينسب إليه ما يزيد عن سبعين أثراً إسلامياً ما بين إنشاء وتجديد ، وتعتبر مجموعة قايتباي بالقرافة الشرقية من أبدع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية ، وترجع أهميتها إلي جمال تنسيق المجموعة مع بعضها ، وهي تتكون من مدرسة ومسجد وسبيل وكتاب وضريح ومئذنة ، وقد لعبت دقة الصناعة وكذا جمال النسب دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم[52]

---

[51] نقلا عن كتاب هؤلاء حكموا مصر– حمدي عثمان،وكتاب(مصر في العصور الوسطي–الأوضاع السياسية والحضارية–د محمود الحويري)

[52] نقلاً عن كتاب (العمارة الإسلامية في مصر) تأليف د كمال الدين سامح – الطبعة الأولي سنة 2000 صفحة 47 وصفحة 48 ،

منشآت السلطان الأشرف قنصوة الغوري :

كان السلطان الغوري يحكم مصر والشام والحجاز كمن سبقوه من سلاطين المماليك وكان يلقب بملك البرين والبحرين وخادم الحرمين الشريفين وكانت مصر في ذلك العهد تسيطر علي حركة التجارة العالمية إلا أنها قد تأثرت إلي حد ما باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ، وكانت القاهرة من أرقي عواصم العالم فنا وحضارة وعلماً وعمارة ، وقد كتب المؤرخ الكبير ابن اياس الحنفي عن السلطان الأشرف قنصوة الغوري ما يلي :وأما ما أنشأ من العمائر التي بالقاهرة فمن ذلك الجامع والمدرسة اللتان أنشأهما في الشرابشيين[53] والوكالة والحواصل والربوع التي أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة والمئذنة التي أنشأها في الجامع الأزهر وهي برأسين ، وأنشأ هناك الربع والحوانيت التي بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التي بخان الخليلي ، وجدد عمارة خان الخليلي وأنشأ به الحواصل والدكاكين ، وأنشأ الميدان الذي تحت القلعة ونقل إليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجري إليه ماء النيل من سواقي نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومأذنة ،

وجدد عمارة قاعات القلعة منها قاعة البيسرية وقاعة العواميد وقاعة البحرة وأنشأ المقعد القبطي الذي بالحوش ، وجدد عمارة سبيل المؤمني وجعل سقفه عقود بالحجر ، وأنشأ الربع والدكاكين التي بسويقة عبد المنعم ، وأنشأ الربع والوكالة التي في الجسر الأعظم ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي بالقرب من قناطر السباع وبناه بالفص الحجر المشهر بعدما كان مبنياً بالطوب اللبن ، وجدد عمارة المقياس وأنشأ به القصر علي تلك البسطة التي كانت بها ، وأنشأ بها المقعد المطل علي البحر ، وجدد عمارة قاعة المقياس ، والجامع الذي هناك ، وجدد عمارة قنطرة بني وائل ، والقنطرة الجديدة ، وقنطرة الحاجب ، وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر ، وجدد عمارة أبراج الإسكندرية ، وأصلح طريق العقبة وأنشأ هناك خانا بأبراج علي بابه وجعل فيه الحواصل مثل الخان الذي في العقبة وحفر هناك الآبار في عدة مواضع من مناهل الحجاج ، وأنشأ بمكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك وأجري عين بازان بعد ما كانت قد انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا علي ساحل البحر الملح وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج جاء هذا السور من أحسن المباني هناك ، وأنشأ علي شاطئ البحر الملح بالينبع الصغير سورا وأبراجا منيعة وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين ، وفي الجملة إن السلطان الغوري كان خيار ملوك المماليك الجراكسة علي عوج فيه ولم يجئ من بعده أحد من الملوك يشابهه في أفعاله ولا علو همته ولا عزمه في الأمور وكان كفئا تاما للسلطنة ، مبجلا في المواكب تملأ منه العيون)[54]

---

[53] منطقة الغورية حالياً

[54] نقلا عن كتاب(المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور)تأليف محمد بن أحمد بن اياس الحنفي–مكتبة الأسرة 1996صفحة 56 ،57

الأمير عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين في العصر العثماني

(عبد الرحمن كتخدا –من مماليك العصر العثماني– بناء عظيم عالي الهمة في أيام العثمانيين، يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه. كان صاحب نفوذ قبل أيام علي بك الكبير، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة – مدرسة ومسجداً وسبيلاً بالقرب من بركة الأزبكية، وفي يوم افتتاحها ملأ حوضاً كبيراً وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب المحلى بالسكر ليسقي الأهالي. وبنى منشئات خيرية أخرى.كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظاً لها) في عام 1744 وقد عشق البناء، فأنشأ وجدد كثيراً من المساجد والأسبلة والأضرحة. وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات في الجانب الشرقي من الأزهر، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عموداً من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشيد مئذنتين وبابي الشوربة والصعايدة وجمع عبد الرحمن كتخدا في أكثر مبانيه بين الجمال والفن، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعي النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم. ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و "تواشيحها" من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط. ويتضمن السبيل كتابات تحتوي على اسم المنشئ وتاريخ الإنشاء (1157هـ/1744) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشاني، وعلى جزء من جداره الشرقي رسم صورة الكعبة الشريفة. وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجداً وصهريجاً وكتاباً، وفي مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الأقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني فخامة وبهاء، كما أنه بنى المشهد الحسيني، وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجداً وصهريجاً وحوضاً وسقايةً ومكتباً، وشيد مسجداً بجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً. وبنى مشهد السيدة زينب، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة، والسيدة فاطمة والسيدة رقية، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة.ومن أجمل عمائره– دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الإتقان والبناء، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشاني، وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام. وموجز القول أن عدد المساجد التي بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجداً، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر ..الخ.

وعظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر علي بك الكبير، فأخرجه منفياً إلى الحجاز وذلك في أول ذي القعدة عام 1178هـ (1764) فأقام بالحجاز اثنتي عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في

عام 1190هـ (1776) بعد أن استولى عليه الهرم، فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ثم مات، ودفن بالمدفن الذي أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر)[55].

مجرد نماذج وأمثلة فقط :

وهكذا لم يخل العصر العثماني نفسه من مماليك محبين للبناء ، وكل ما سبق كان مجرد نماذج للأعمال المعمارية للمماليك وليس حصراً لها بالطبع سواء كانت من عصر المماليك البحرية أو البرجية وحتي العصر العثماني ، وبعد أن استعرضنا المنشآت المعمارية بإيجاز شديد سنحاول استعراض بعض العادات والتقاليد التي كانت مرعية في ذلك العصر حتي نقترب أكثر من المماليك في الفصل القادم ثم بعد ذلك في الفصول التالية سنستعرض أهم الأحداث والمعارك الحربية بإيجاز شديد أيضاً وسنخصص لكل عصر من عصور المماليك فصلاً يتضمن أشهر الأحداث التي ستساعدنا في هذا البحث لنصل إلي غايتنا منه إن شاء الله ، أما الأحداث التي تم الإشارة إليها في سياق الحديث عن الأعمال المعمارية فلن يتم تكرارها

[55] نقلاً عن كتاب عبد الرحمن زكي، بناة القاهرة في ألف عام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص 78- 80